Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

الظواهر التطريزية و دورها في المعنى
ظاهرة التنغيم أنموذجا

د. سليمان بوراس
جامعة محمد بوضياف–المسيلة

ملخص:

من الظواهر الصوتية ظاهر التنغيم وهي ظاهرة تطريزية تنصب على المنطوق وتؤدي وظائف في المنظومة الكلامية ،و تشترك فيها كثير من اللغات ،و تكمن أهميتها في في أنها تؤدي دورا كبيرا في التواصل اللغوي ،وقد تفطن إل ذلك علماؤنا الأولون و درسوها غير أن الدراسة كانت بسيطة إل حد ما ،و لعل في ذلك مبررا لأن تأتي هذه الدراسة لتبين ما لهذه الظاهرة التطريزية من قيمة في الأداء الكلامي.

Resumé

L'intonation est un phénomèneprosodique qui se focalise sur le parleret rempli plusieurs fonctions dans le système de parole.Son importance et sa valeur réside dans son rôle dans la communication langagière. Nos grammairiens se sont tôt rendu compte de son importance, ils ont essayé de l'étudier, maisleurs études étaient superficielles. C'est pourquoi la présente étude essaye de démontré la valeur de ce phénomèneprosodique dans performance de la parole, sans oublier la diversité dans l'habillement du texte.

Mots Clés : intonation. Foclisation. Sens . Langue .Réthorique

عندما نتحدث عن الظواهر التطريزية فإننا نقصد تلك المسحات الصوتية التي تصاحب المنطوق لتعطيه معنىً ما ،كان موجودا في المرسلة الخطابية قبل ذلك ،و هذه الظواهر يمكن لدارس اللغة أن يتوقف عندها في مستويات متعددة ،منها المستوى الصوتي ومنها المستوى الإدراكي ومنها المستوى الوظيفي، ففي المستوى الصوتي يتناول الدارس كيفية نطق هذه الظاهرة التطريزية من تنغيم و نبر و وقف ، كيف نطق و كيف كانت هذه الظاهرة أفي بداية الكلام أم في وسطه أم في آخره ، وفي المستوى الإدراكي يتناول الدارس ماذا فهم من هذه الظاهرة التطريزية و

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

ما المعنى الذي حملته ،فإن كانت تنغيما مثلا فصل نوعها أهي تريد التوضيح أم الإغراء أم التعجب أم التهديد أم غير ذلك من الأغراض التي نعرفها في البلاغة القديمة؟ ،و أما في المستوى الوظيفي فيتناول الدارس ماذا أحدثت من تأثير في المتلقي و ما الوظيفة التي أدتها في المرسلة الكلامية ؟.

و يلاحظ الدارس أن الظواهر فوق المقطعية لم تلق عناية كبيرة في الدراسات اللسانية الحديثة كما لقيتها الظواهر الصوتية الأخرى ،و لعل مرد ذلك إلى أن هذه الظواهر ليس لها من أثر في التركيب بل ينصب أثرها على المعنى ،ومن الظوهر فوق المقطعية ظواهر التطريز التي تناولها الدرس اللغوي القديم تناولا عارضا لأنه رأى أنها لا تحمل قيمة في التركيب ،إذ إن عناية النحاة كانت متجهة بشكل كبير إلى التراكيب على الرغم مما للظواهر التطريزية عموما دور في المنظومة الكلامية ،و منها أولا : ملء الفراغات في المكتوب إذ إننا حينما نقرأ نصا مكتوبا و نحوله إلى أصوات منطوقة ففي كثير من مواقفه تجدنا نحول الفراغات إلى أصوات ،فحينما نقرأ نصا فيه فقرات متعددة تجدنا نتوقف عند نهاية الفقرة بصوت معين مميز ينبيء المستمع أن الفقرة قد انتهت ،و حينما نبدأ الفقرة الموالية لها تجدنا نبدأها بصوت آخر يفهم منه المستمع أن فقرة جديدة قد بدأت ،و حينما نتوقف توقفا نهائيا تجدنا نستعمل صوتا غير هذين تماما ،و لعل ذلك يتجلى كثيرا عند المجودين للقرآن الكريم و عند الصحفيين الذين يتقنون إلقاء النشرات الإخبارية ،و أما ثانيا فتحويل المكتوب إلى منطوق و هذا حينما تتحول علامات الترقيم الخاصة بالانفعالات إلى نغم معين محدد ، فالعلامة الدالة على الاستفهام تلغى حين القراءة وتستبدل بنغمة دالة على الاستفهام ،و مثلها علامة التعجب و أما ثالثا فإحداث معنى جديد ،ذلك أن العناصر الصوتية يختلف معناها بحسب التنغيم أو الوقف أو التفخيم أو الترقيق فمثلا [1]من اللغة الفرنسية (amenez le vivant)فنطق الجملة بوقف قبل (le) يكون معنى الجملة (آتوني بالحي) وفي الوقف بعد (le) يعني (آتوني به حيا) .

التنغيم ظاهرةً تطريزيةً :

من أبرز الظواهر التطريزية في العربية ظاهرة التنغيم ذات الأهمية الكبرى في بيان معاني الملفوظ وهذه الظاهرة "من الحقائق الصوتية في اللغات المختلفة "[2] إذ إن كثيرا من اللغات تتسم بها ،والتنغيم ظاهرة صوتية مرتبطة بالارتفاع والانخفاض في نطق الكلام نتيجة لدرجة توتر الوترين الصوتيين"[3]، و يصنفها كثير من العلماء في عداد الفونيمات ،و قد صنفها بعضهم (فونيمات ثانوية) أو (فونيمات فوق التركيبية أو فوق القطعية)[4] ؛والتنغيم أن يعطي المتكلم العبارة نغمات تنجم في الجانب النفسي عن عاطفة يحسها وفي الجانب الفكري عن معنى يختلج في ذهنه ،و في

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

الجانب العضوي عن تغيّر في عدد الهزات التي تسري في حنجرته ،و يرى الدكتور تمام حسان متحدثا عن آلية حدوث التنغيم إنه " يمكن تعريف التنغيم بأنه ارتفاع الصوت و انخفاضه أثناء الكلام و ربما كان له وظيفة نحوية هي تحديد الإثبات والنفي في جملة لم تستعمل فيها أداة الاستفهام فقد تقول لمن يكلمك و لا تراه (أنت محمد) مقررا ذلك أو مستفهما عنه ،و تختلف طريقة رفع الصوت و خفضه في الإثبات عنها في الاستفهام "[5] ، وهو ذو مستويات في اللغات إذ إنه " تتنوع النغمات في اللغات بين النغمة الصاعدة والنغمة الهابطة والنغمة المستوية ، وقد تفصل أكثر من هذه التفصيلات "[6]،ويتنوع بين تنغيم أدائي و تنغيم دلالي ، فأما الأدائي فهو " طريقة نطق الكلمة حسب النظام اللغوي المتعارف عليه عند أهل اللغة أنفسهم ،و هذا لا يكون إلا بالتعلم المكتسب ،وهذا التنغيم يتقنه المرء واعيا أو غير واع بتفاعله المستمر مع بيئته اللغوية مدة من الزمن "[7] ،و أما التنغيم الدلالي فينقسم إلى قسمين تعبيري و نحوي [8]:فالتنغيم التعبيري هو ما تستخدمه كثير من اللغات في أداء كثير من المعاني البلاغية ،فالتعجب مثلا والاندهاش والعرض وغيرها كثير من المعاني ، والتنغيم النحوي هو تنغيم ضروري في فهم التركيب إذ بدونه يحدث إغلاق الفهم أصلا أو فهم التركيب على غير المراد من المعنى [9]، يقول صائل رشدي " و لا بد أن نشير هنا إلى أننا أهملنا هذا التنغيم في دراستنا لأبواب النحو العربي و لاسيما في جامعاتنا و مدارسنا "[10].

التنغيم في اللغات العالمية :

تتنوع لغات العالم من حيث استعمالها للتنغيم " فكل لغة لها نغمة خاصة بها " [11] ، فاللغات لا تتفق على نمط واحد في نغماتها ،بل لكل لغة نمط نغمي يميزها عن غيرها ، وذلك أن مقاطع الكلام تختلف في ألحانها الموسيقية ،فمنها ما هو عال ،و منها ما هو وطيء و تتدرج بين تلك الغايتين "[12] ،و يتواجد التنغيم بشكل متباين من حيث كثرتُهُ في اللغات ،و من حيث حاجة اللغة إليه فهو "كثير في بعض اللغات و قليل في البعض الآخر"[13]، فبعض اللغات تعتمد اعتمادا كبيرا على النغم ، ولا يمكن أن تكون التراكيب اللغوية خلوا منه، و من اللغات كثيرة النغم والتي تعتمد عليه كثيرا اللغة الصينية و بعض اللهجات الألمانية[14]، و نجد من اللغات ما يجعل لاختلاف درجة الصوت أهمية كبرى ،إذ تختلف فيها معاني الكلمات تبعا لاختلاف درجة الصوت حين النطق بها "[15] ،ففي اللغة الصينية مثلا تؤدي كلمة (فان) ستة معان لا علاقة بينها هي (نوم ، يحرق ، شجاع ، واجب، يقسم، مسحوق) ، و ليس هناك من فرق سوى النغمة الموسيقية في كل حالة[16]، ومثل ذلك لغات غانا واليابان فهي من اللغات التنغيمية [17]، التي تعتمد على النغمات في اللفظ الواحد لتتعدد المعاني .

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

الدراسات التراثية العربية و التنغيم :

وقد تناول علماؤنا الأولون بالدراسة التنغيم من حيث هو ظاهرة تطريزية ،فابن جني في بعض المواضع يقول " فليت شعري إذا شاهد أبو عمرو وابن أبي إسحاق ويونس و عيسى بن عمر والخليل وسيبويه و أبو الحسن و أبو زيد وخلف الأحمر و الأصمعي ، ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين ، وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها و تقصد له من أغراضها ، ألا تستفيد بتلك المشاهدة و ذلك الحضور ما لا تؤديه الحكايات و لا تضبطه الروايات[18] ،و الذي يجب أن يذكر لابن جني أنه التفت إلى ذلك ،و على الرغم من بساطة الالتفاتة ألا أنها تحسب له ، كما يجب أن نلتفت نحن اليوم إلى ما قاله سيبويه مثلا في باب الندبة حين قال: " اعلم أن المندوب مدعو و لكنه متفجع عليه ، فإن شئت ألحقت في آخر الاسم الألف لأن الندبة كأنهم يترنمون فيها "[19] ، فقوله : (يترنمون فيها) تعني التنغيم ،إذ العرب يتنغمون بالندبة فحينما يقول القائل منهم : وا محمداه ، متفجعا على ولده محمد المتضرر فهو يتكلم بنبرة خاصة تفيد التنغم والترنم و التفجع. و انظر إلى قول الشاعر [20]:

" نعب الغراب بما كرهـ ـت و لا إزالة للقدر

تبكي وأنت قتـــلتها فاصـــبر و إلا فانتحر

فسياق البيت الثاني : (تبكي وأنت قتلتها) يوحي أن الشاعر يستفهم ،و إن لم يستعمل الأداة ذلك لأن النغمة التي طرز بها التركيب أغنته عن استعمال الأداة ،و هذا هو المعنى الذي ذهب إليه ابن جني في الخصائص حينما تناول ما سماه التطويح و التطريح و التفخيم ،و حينما يقول القائل منهم :سيرَ عليه ليلٌ و هم يقصدون ليل طويل فقد أغنتهم النغمة عن الصفة و كانت النغمة كاسية للبناء اللغوي كله فحين تطرح وتطوح كما قال فاضل السامرائي :" تقول سألناه فوجدناه إنسانا و تمكن الصوت بـ إنسان وتفخمه فتستغني بذلك عن الصفة بقوله إنسانا سمحا "[21] ،و اختلاف الصوت يؤدي إلى اختلاف المعنى إذ "الأصل في العربية أن تكون العلامات ذوات دلالة على المعاني ،و أن اختلاف العلامات يؤدي إلى اختلاف المعاني [22] ،ومنه النغمة في قول القائل منا متحدثا عن آخر : كان والله رجلا ،بتطويح كلمة و الله ،و تمطط اللام فيها و تطيل صوتها و تقوي لفظها و تطويحها تريد مدحه و الثناء عليه [23]، وقد تميز النغمة بين المنادى المندوب و المنادى غير المندوب[24] ،و لنأخذ أيضا قول الشاعر أبي خراش الهذلي[25]:

رفوني و قالوا يا خويلد لا ترع فقلت وقد أنكرت الوجوه هم هم

فأبو خراش في هذا البيت بغير ضبط صوتي يمكن أن يفهم على صورتين :

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

أما الأولى فهي أنه يخبرنا في صدر البيت بأنهم رفوه أي سكّنوه و أمنوه ،وقالوا له يا خويلد لا ترع و لا تخف ، ثم يخبرنا في العجز أنه قال ،و هو ينكر الوجوه إن هؤلاء هم من أخافهم وأحاذرهم [26]، وأما الصورة الثانية فإنه يخبرنا في صدر البيت ثم يقول في العجز ، إنني قلت لهم ، وأنا أنكر الوجوه التي أراها ولا أعرفها متعجبا متسائلا أهم هم ؟ .

و في بيت الخنساء[27]:

تقول نساء :شبتِ من غير كبرة و أيسر مما قد لقيت يُشيب

فالخنساء تخبرنا أن بعض النسوة قلن لها : شبت من غير امتداد سن ،فتبرر لهن لماذا كان هذا الشيب الذي غزا رأسها ،و انظر إلى الجزء الأول من الخطاب (شبت من غير كبرة)، فقد يقرأ الملفوظ بنبرة مسطحة فلا يكون فيه من المعنى سوى أنهن يخبرنها بدخولها مرحلة الشيب لأمارات بدت عليها كأمارة غزو الشيب رأسها ، لكن القراءة بطريقة تنغيمية ثانية صاعدة تجعلنا نفهم أن النسوة لم تكنَّ مخبرات بل كن متعجبات من أن يغزو الشيب رأس الخنساء و هي لا تزال صغيرة السن ، و ليس لهذا التغير في المعنى .

لعلنا من خلال ما تقدم يمكن أن نقول إن التنغيم ظاهرة صوتية هامة تؤثر تأثيرا كبيرا في الملفوظ ليتحول معناه من باب إلى باب آخر ،و هذه الصفة لا تكون مقترنة بجزء صغير من الملفوظ بل إنها ترتبط بالعبارة كاملة ، لذلك كما يقول الدكتور كمال بشر " ما يزال التنغيم هو الخاصة الصوتية الجامعة التي تلف المنطوق بأجمعه ، وتتخلل عناصره المكونة له ، وتكسبه تلوينا موسيقيا معينا حسب مبناه و معناه و حسب مقاصده التعبيرية " [28]،و قد تكون قرينة التنغيم بديلا عن الأداة ، فكثير من أبواب النحو العربي إنما تعرف بأدواتها لكن تلك الأدوات قد تحذف ،و مع ذلك يبقى النغم محافظا على المعنى المراد و في ذلك يقول الدكتور تمام حسان " أن الأداة حين تحمل تلخيص أسلوب الجملة قد تحمله إيجابيا بوجودها أو سلبيا بعدمها حين تقوم القرينة على المعنى المراد مع حذف الأداة و ذلك كالاستغناء عن أداة الاستفهام أو العرض عند الاتكال على قرينة النغمة كأن تقول لرجل رآك تأكل تمرا مثلا : تأكل؟ بنغمة العرض والمعنى ألا تأكل ؟ فهنا حيث تغني النغمة عن الأداة فيصبح معنى الأداة قد تحقق على رغم حذفها بواسطة ما يسمى " العلامة العدمية " أي دلالة عدم وجود الأداة (وهو الحذف) على المعنى الذي يكون عند وجودها" [29]،" فالصيغة التنغيمية منحنى نغمي خاص بالجملة يعين على الكشف عن معناها النحوي"[30]، فتنغيمنا و تطريزنا به لجملة معينة إنما هو إعطاء لمعنى فيها و هذا المعنى تحمله الجملة كلها لا يحمله جزء من المنطوق أو المقروء ، و تحمل كل نغمة معنى خاصا بها فهذا تنغيم للمدح و هذا تنغيم للذم وهذا للسخرية وغير ذلك من المعاني لأن "نغمات الكلام دائما في

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

تغير من أداء إلى آخر و من موقف إلى آخر ، ومن حالة نفسية إلى أخرى" [31]" يتصل بهذا الأمر وظيفة ثانية يقوم بها التنغيم يمكن أن تسمى الوظيفة الانفعالية "[32] " و إمكانات التنويع في النغمات واسعة إلى حد كبير ، وفقا لنوع الكلام وظروفه ، وهذا التلوين الموسيقي وهذا التطريز يعطي الكلام معنى : إنه يدل على الحالة النفسية للمتكلم ،كما يعد عاملا مهما من عوامل توضيح المعاني وتفسيرها "[33] .

التنغيم و الدرس اللغوي :

و للتنغيم دور هام في تصنيف الأبواب النحوية و المعاني البلاغية إذ "من أهم الوظائف النحوية للتنغيم دوره في تصنيف الجمل إلى أنماطها المختلفة من تقريرية واستفهامية وتعجبية " [34]، فقد يكون التركيب واحدا و لكن النغمات هي التي تجعلنا نقول إن هذه تركيبة استفهامية ، و تلك تقريرية وتلك مجرد إخبارية ، مع الإشارة هنا إلى عدم حضور الأداة لأن وجودها هو الذي يوجه إلى المعنى المراد أكثر من توجيه النغمة" فالجملة الواحدة قد يتنوع معناها تتنوع صور نطقها و كيفية التنويع في موسيقاها "[35] .

فهذا الفونيم فوق التركيبي (فونيم النغمة) له خاصية تمييزية تطريزية في اللغة الفصحى على أساس التنوع بين الأفراد ، وأغلب استعمالاته في اللغة للدلالة على معان مضافة كالاستفهام و التأكيد و الدهشة وغيرها "[36]،و" يقوم التنغيم بوظيفة نحوية إذ به يمكن التمييز بين التراكيب التقريرية والتراكيب الاستفهامية من دون إضافة أي من أدوات الاستفهام "[37]، و يمكن أن يكون التنغيم بديلا عن وصف آخر هو الكتابة ، يقول تمام حسان : " و التنغيم في الكلام يقوم بوظيفة الترقيم في الكتابة ،غير أن التنغيم أوضح من الترقيم في الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة "[38].

ففي قوله تعالى : ﴿ **قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى** ﴾ (طه 135) ، فاللفظ (من) في قوله (من أصحاب) و في قوله (من اهتدى) يمكن أن تكون استفهامية إذ قد تقرأ الآية مطرزة بتنغيم يعين على إيجاد معنى الاستفهام ،و يكون المعنى فستعلمون أيًا هم أصحاب الصراط السوي ،و أيا هم المهتدون والذي يعين على ذلك ولا شك هو النغمة التي تقرأ بها الآية ،و انظر إلى قول ابن أبي ربيعة و هو يتحدث عن أن محبوبته قد أخذت قلبه حتى إنه ما عاد يعرف عدا ،بل إنه يعرف العد و لكنه حينما شاهدها و كان في أعظم موقع ،و في عبادة من أجل العبادات ،ما عاد يدري بكم رمى من الحجارة فهو يقول :

لعمرك ما أدري _ وإن كنت داريا _ بسبع رمين الجمر أم بثمان [39]

ففي البيت استفهام بغير أداة ، ولهذا السبب لا يمكن أن يفهم السامع البيت إذا لم يكن مع اللفظ نغمه تطريزية أو قرينه أخرى تؤدي إلى أن يفهم قصد المتكلم ؛و مراد الشاعر : لا أدري أبسبع

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

رمين جمرات الحج أم رمين بثمان من الحجرات ،و إلى هذا المعنى يذهب علماء منهم المبرد و ابن هشام والتوحيدي وغيرهم : فليس على الإضراب ،ولكنه أراد أبسبع ؟ فاضطر فحذف الألف ،و جعل أم دليلا على إرادته إياه "[40] وفي قوله تعالى " قال هذا ربي "قيل إنه على حذف الاستفهام و المعنى : أهذا ربي[41]، وفرق في التنغيم بين أن يقصد الإخبار و بين أن يراد التعجب بالاستفهام ،ذلك لأن التنغيم وهو الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق"[42]، فقد تقرأ الآية مطرزة بتنغيم الإخبار فلا يكون فيها من معنى سوى خبر أن إبراهيم قال مخبرا : هذا ربي ،و لكنها حينما تقرأ بتنغيم الاستفهام فالمعنى يتغير ،فالرجل لا يزال في حيرة من أمره و لم يعثر بعد على مبتغاه ،فهو يتساءل أهذا الذي أراه هو ربي ؟. ومثل ذلك في قوله تعالى:﴿ **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ (الشعراء22) أي أوتلك نعمة تمنها علي [43]، فحينما تقرأ الآية بالصوت الصاعد فإن المعنى يكون التعجب من كون فرعون يذكر هذه المنة [44]، فالتطريز بالنغمة في الآية يجعلنا نفهم أن المراد هو الاستفهام لا غيره ولولا النغمة لكان المفهوم هو الإخبار أي إن تلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ، وانظر كم هو الفرق بيِّن بين المفهومين .

وفي الآية الكريمة ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ (التحريم 1) [45]، فالمعنى : يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك أتبتغي مرضاة أزواجك ،فحينما نقرأ الآية بلا تطريز بتنغيم للاستفهام بداية من قوله: تبتغي ، يكون المعنى غير المعنى الموجود فيها حينما نقرأها بصيغة الخطاب الموجه إلى رسول الله ثم معاتبته لأنه يبتغي مرضاة أزواجه ،وكل ذلك المعنى إنما جاء من التنغيم الذي كسا العبارة و الذي لولاه لما حصل كل هذا المعنى .

و قد يستعين التنغيم بواحدة من القرائن المساعدة و منها العطف بـ (أم) فهي إن وردت في الكلام دلت على أنها مسبوقة باستفهام ، ومن ذلك قول المتنبي (وافر)[46]:

أحاد أم سداس في أحاد لبيلتنا المنوطة بالتناد

فقد شك أواحدة هي أم ست اجتمعت في واحدة فطلب التعيين [47]، و من التطريز بالنغمة التي تحمل اللفظ معنى قول طفيل الغنوي [48]:

و قلن على البردي أولُ مشرب أجل ، جير إن كانت رِواءً أسافلُه "

فقول القائلات ليس من باب الإخبار ، بل هو من باب التساؤل ، إذ هن يتساءلن : أعلى البردي أول مشرب أم على غيره ،و لعل من المعينات على تبني هذا المعنى وجود حرف الجواب (أجل) بعد هذا التساؤل ، فالنغمة تعيننا حينما نقرأ البيت على فهمه الفهم المراد ،وأنشد أبو الحسن :

و أتى صواحبها فقلن هذا الذي منح المودة غيرنا وجفانا

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

قال يريد أذا الذي منح[49]، فانظر إلى هذا البيت لولا نطقه بالنغمة المناسبة التي تجعلنا نفهم المقصود الحقيقي للشاعر ؛ فقد يُقرأ البيت بنغمة هابطة " هذا الذي منح المودة غيرنا و جفانا " و يفهم السامع أو القارئ أن المقصود هو أن المتكلمات من الصواحب اللواتي ذكر الشاعر قد قلن مخبرات بخبر مفاده : هذا هو الشخص الذي منح المودة لغيرنا و جفانا و تركنا ، و تقرأ البيت بالنغمة الصاعدة فيؤدي ذلك إلى أن يفهم المستمع أن الكلام فيه استفهام أي أن النغمة تجعلنا من غير وجود للأداة نقول : أهذا هو الذي منح المودة غيرنا و جفانا فانظر كم هو الفرق بين التركيبين .

و في سورة يوسف آية منها لولا أنها تقرأ مطرزة بنغمة معينة لما كانت مؤدية المطلوب ، ذلك قوله تعالى : ﴿ **قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴾ (يوسف74و 75) فقراءة الآية يجب أن يكون بتنغيم الاستفهام [50]، و يكون (جزاؤه) مبتدأ و الجملة الشرطية كما هي خبره على إقامة الظاهر فيها مقام المضمر ، والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو "[51] ،و قد تكون بعض الأبيات الشعرية غير دقيقة المقصود إذا لم تكن مقرونة بالنغم الذي يحدد معناها ، و يدفعها إلى أن يكون معناها هو المثبت ، و لولا ذلك النغم لكان المفهوم قد انحرف إلى غيره ، بل وقد ينحرف إلى الضد كما في قول الكميت (طويل) [52]:

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا مني و ذو الشيب يلعب

أراد أو ذو الشيب يلعب؟ [53]، ألم تر أنه لولا النغمة لما كان يمكن أن يفهم المقصود أنه التوكيد بأن ذا الشيب يلعب ، أي إنني طربت و ما ذلك لعبا مني مع أن ذا الشيب يلعب ، فالفرق بيِّن بين المعنيين .

" ولكن شاعرا كابن أبي ربيعة استطاع أن يحذف الأداة بلا لبس حين قال[54]:

ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد النجم و الحصى والتراب

فقد أغنت النغمة الاستفهامية في قوله : " تحبها " بما لها من صفة وسيلة التعليق عن أداة الاستفهام فحذفت الأداة و بقي معنى الاستفهام مفهوما من البيت "[55] ،فقيل أراد أتحبها ، وقيل أنها خبر أي أنت أتحبها ؟ [56] ، ومعنى قوله قلت بهرا قلت أحبها حبا بهرني بهرا أي غلبني غلبة [57]، و من ذلك ما يروى أن اليزيدي (ت 202) سأل الكسائي بحضرة هارون الرشيد : انظر في هذا الشعر عيب ؟ و أنشده :

ما رأينا خَــرَبا نقر عنه البــيض صقر

لا يكون العير عيرا لا يكون المهر مهر

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

قال الكسائي أقوى الشاعر فقال له اليزيدي فقال له إنما ابتدأ ولم يقو[58]، فلو أن اليزيدي توقف عند اللفظ (يكون) لما حدث اللبس و لو كان تنغيم اللفظ (المهر)كما يفرض السياق لما كان خطأ الكسائي العالم الجليل في اللغة .

التنغيم و الوظائف الدلالية

التطريز بالنغمة له دلالة وظيفية على معاني الجمل تتضح في صلاحية الجمل التأثرية المختصرة نحو : لا، نعم ، يا سلام ، الله ، الخ ، لأن تقال بنغمات متعددة ،و يتغير معناها النحوي و الدلالي مع كل نغمة بين الاستفهام ،و التوكيد ، و الإثبات لمعان مثل الحزن و الفرح و الشك و التأنيب و الاعتراض و التحقير " [59] ،وقد يتحول الكلام الذي نتكلمه بصيغة معينة إلى كلام فيه إنكار إذا وظفنا نغمة صاعدة نحو قوله تعالى : أفسحر هذا أو قوله : أشهدوا خلقهم إنكار و لولا التنغيم ما كان ذلك ليتبين[60]، المعنى المراد ، و مثل ذلك في قوله تعالى : ﴿ **إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ** ﴾ (النمل 23 و 24) ، إذ لولا التطريز النغمة لم نتبين أن الهدهد ينكر عليهم صنعهم و يرى فساد رأيهم كل ذلك من التنغيم ، ومنه ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ (البقرة 67) ، إن القراءة للآية بأن تكون النغمة الصاعدة في قول موسى أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، لأن تلك النغمة هي التي تؤدي معنى الإنكار لما يقولون ، و التعجب مما يفعلون ، ولو قرئت بغير تلك النغمة لما كان المعنى المراد ، فموسى في مجال أن يتعجب من عناد بني إسرائيل ومن كثرة مساءلتهم فلا بد أن تكون النغمة صاعدة تلف الملفوظ الذي تلفظ به موسى كله يضفي عليه مسحة التعجب و الإنكار ،وقد يطرز الكلام بتنغيم معين يمكن أن يتجه إلى جهة الدعاء و منه قولهم : شفاك الله ، فهي جملة إخبارية إذا نطقت بتنغيم صاعد ،و جعلوا الفاصلة الصوتية إجبارية بين اللفظين ليكون الدعاء الإيجابي، ففي قولهم " لا شفاك الله"[61] ،دعاء و لكنها بالمرض ، فقالوا لمن أراد قولها يجب أن يقول : لا ، ثم يقطع كلامه و يعطف و يقول : و شفاك الله ، فلو قالها مجتمعة انقلب معناها وذلك باستعمال النغم المناسب فلو لم نتوقف عند (لا) لكان المعنى أمرا فإذا توقفنا وانطلقنا كان المعنى أمرا ثانيا ومثل ذلك قوله تعالى متحدثا عن يعقوب : ﴿ **قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ (يوسف 92) فبين قراءتها بالفصل بين لفظ (عليكم) ،و لفظ (اليوم) مرة ،وبين لفظ (اليوم) و لفظ (يغفر) مرة ثانية فرق و النغمة هي المحدد له ،و في البيت المنسوب إلى الشاعر العربي مالك بن الريب [62]:

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

إذا أنا مت فاعتادي القبور وسلمي على الريم أسقيت الغمام الغواديا

والريم القبر [63]، وفي قوله : أسقيت الغمام الغواديا لا بد أن يقرأ بالنغمة الصاعدة ذلك أنه في باب الدعاء لها بالسقي و الري ، و لو قصد غير هذا المعنى لكان غير هذا اللفظ أو على الأقل غير تلك النغمة ، فالنغمة حولت المعنى من الإخبار إلى معنى إضافي هو الدعاء و الترحم ، و هذا المعنى كما قلنا سابقا لبسته العبارة كلها فصارت متسقة منسجمة به و صار لها من المعنى ما حملته النغمة المرافقة ،و في قوله تعالى ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ (المسد 1)، فلفظ الفعل (تبَّ) الوارد في بداية الآية بل في بداية السورة يمكن له أن يقرأ بنغمة تفهمنا أن القضية خبر لا غير ،لكننا حينما نغير نغمة القراءة يكون المعنى غير الأول ،إذ يتحول المعنى إلى الدعاء عليه و توعده بالويل و الهلاك والإحراق ، وبين التعبيرين من الفرق ما بينهما ن وكل ذلك جاء من تغير النغمات في الملفوظ ،و في قوله تعالى:﴿ **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ** ﴾ (النمل 20) كانت النغمة هي الفيصل في أن مراد سليمان عليه السلام هو التعجب و الحيرة ، و مما يدل على التعجب قوله تعالى "﴿ **قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ** ﴾ (الأنبياء 62) ،ومن ذلك قول امرئ القيس [64]:

وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

فهذا ظاهره استفهام لنفسه ، ومعناه التحضيض لها على البكاء [65]

و منه أن يدل على الوعيد ومنه قوله تعالى﴿ **أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ** ﴾ (المرسلات 16) ، فالمعنى في الآية التهديد بسوء المآل ،و وخم العاقبة ،قد تجلى ذلك من خلال النغمة التي نقرأ بها الآية ،و في قوله تعالى : ﴿ **هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى** ﴾ (طه 120)، فالكلام ليس فيه معنى الاستفهام و فقط بل فيه إغراء بالخبر الموجود في النص الملفوظ ، إذ تفهم منه أن إبليس يغري آدم عليه السلام بمعرفة شجرة الخلد و الملك الذي لا يبلى ،وفي قول جرير مادحا عبد الملك بن مروان [66]:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

إنه لو كان استفهاما حقيقيا ما وصل الشاعر به إلى مراده ، و لكنه لما عُلم أن البيت ليس من الاستفهام كان كما يقال أمدح بيت قالته العرب [67]

و من خلال ما تقدم كله من بيان مفهوم التنغيم ،يمكن أن نخلص إلى أن التنغيم ظاهرة تطريزية لم تلق من العناية ما تستحقه ، و هي ظاهرة تتقاطع فيها كثير من لغات العالم و هذه الظاهرة لها قيمتها الكبيرة في كثير من العلوم التي تتقاطع على تناولها ودرسها كالصوتيات والتجويد والنحو والبلاغة ، ومن خلال هذا أمكن لنا أن نقول إنه يجب أن تكون الدراسات

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

المتخصصة في كل علم من هذه العلوم لنعطي الظاهرة حقها ،يدرسها عالم الصوتيات بمطيافه ليحدد الجانب الصوتي المحض ويتناولها المجود ليبين دورها في الأداء الصوتي ويتناولها النحوي واللغوي ليحددا بُعدها المعنوي و الجمالي .

الهوامش

1 . عبد الحميد زاهيد ، نبر الكلمة وقواعده في اللغة العربية دار وليلي للطباعة والنشر الطبعة الأولى المغرب ،ص 11

2 . محمود فهمي حجازي ، مدخل إلى علم اللغة ، دار قباء لطباعة و النشر و التوزيع ، دط ،القاهرة مصر العربية دت ، ص 82 ، أحمد مختار عمر ، دراسة الصوت اللغوي ، ص 366.

3 . انظر محمود فهمي حجازي ، مدخل إلى علم اللغة ، ص 82 ، انظر أيضا محمود السعران ، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت لبنان ، ص 192، انظر رمضان عبد التواب ، المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي ، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة ، القاهرة مصر العربية 1997 ، ص 106 .

4 . ينظر كمال بشر ، علم الأصوات ، ص 531.

5 . تمام حسان ، مناهج البحث في اللغة ، ص 198 ، انظر أيضا غانم قدوري الحمد ، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، دار عماد للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، عمان الأردن 2003 ، ص 477 .

6 . انظر غانم قدوري الحمد ، المدخل إلى علم الأصوات ، ص 256 .

7 . صائل رشدي شديد عناصر تحقيق الدلالة في العربية ، ص 89.

8 . ينظر المرجع نفسه ص 90.

9 . ينظر المرجع نفسه ، ص 93.

10 . المرجع نفسه ، ص 93.

11 . رمضان عبد التواب ، التطور النحوي للغة العربية ، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية ، القاهرة مصر العربية 1994 ، ص 71.

12 . رمضان عبد التواب ، التطور النحوي للغة العربية ، ص 71.

13 . انظر رمضان عبد التواب ، التطور النحوي للغة العربية ، ص71.

14 . انظر رمضان عبد التواب ، التطور النحوي للغة العربية ، ص71.

15 . انظر إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، طبعة 1999 ، ص 142.

16 . إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ، ص 142 ، فاضل صالح السامرائي ، معاني النحو ، ج 1 ، ص 12.

17 . انظر سعد عبد العزيز مصلوح ، دراسة السمع و الكلام ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ، بيروت لبنان 2000 ، ص 222 .

18 . ابن جني ، الخصائص ،ج 1 ،ص 208.

19 . سيبويه ، الكتاب ، ج 2 ص 220 ، انظر ابن يعيش ، شرح المفصل ،ج 2 ، ص 13 .

20 . ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 8 ، ص 168.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

21 . فاضل السامرائي ، معاني النحو ،ج 1 ،ص 12 .

22 فاضل السامرائي ، معاني النحو ،ج 1 ، ص 26.

23 . انظر ابن جني ، الخصائص ، ج 2 ، ص 551 ، انظر مصطفى النحاس ، من قضايا العربية ، ص 88.

24 . انظر ابن جني ، الخصائص ، ج 3 ص 736، انظر مصطفى النحاس ، من قضايا العربية ، ص 89 ، انظر فاضل صالح السامرائي ، معاني النحو ، ج 1 ص 11.

25 . ديوان الهذليين القسم الثاني ، دار الكتب المصرية ،الطبعة الثانية، القاهرة مصر 1995 ، ص 144 ، انظر البغدادي (عبد القادر بن عمر) خزانة الأدب ، ج 1 ، ص440.

26 . فاضل صالح السامرائي ، معاني النحو ، ج 1 ، ص 165.

27 . الخنساء ، ديوان الخنساء ، شرح حمدو طماس ، ص 19 .

28 . كمال بشر ، علم الأصوات ، ص 531.

29 . تمام حسان ، اللغة العربية معناها و مبناها ، ص 128.

30 . نفسه ، ص 226 ، انظر تمام حسان ، اجتهادات لغوية ، ص97.

31 . كمال بشر ، علم الأصوات ،ص 533.

32 . سعد عبد العزيز مصلوح ، دراسة السمع و الكلام ، ص 222.

33 . كمال بشر ، علم الأصوات ، ص 534.

34 . نفسه ، ص 543.

35 . نفسه ، ص 534.

36 . عبد القادر عبد الجليل ، الدلالة الصوتية والصرفية في لهجة الإقليم الشمالي لمدينة البصرة ، دار صفاء للنشر و التوزيع ، الطبعة الأولى ، عمان الأردن 1997 ، ص 79 .

37 . انظر سعد عبد العزيز مصلوح ، دراسة السمع و الكلام ، ص 222.

38 . تمام حسان ، اللغة العربية معناها و مبناها ، ص 226 ، و انظر حسام البهنساوي ، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب ، مكتبة زهراء الشرق ، الطبعة الأولى ، القاهرة مصر العربية 2005 ، ص 236.

39 . سيبويه ، الكتاب ،ج 3 ص 175، انظر المبرد المقتضب ج 3 ص 294 ، انظر السيوطي ، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، ج 3 ، تحقيق أحمد شمس الدين منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت لبنان 1998 ص167 ، ابن أبي الربيع القرشي الاشبيلي السبتي ، البسيط في شرح جمل الزجاجي ، ج 1 ، ص351، انظر الصادق خليفة راشد ، دور الحرف في أداء معنى الجملة ، منشورات جامعة قار يونس بنغازي 1996، ص125 ، انظر علي توفيق الحمد و يوسف جميل الزغبي ، المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ، دار الأمل الطبعة الثانية إربد الأردن1993، ص 16.

40 . المبرد ، المقتضب ، ج 3 ، ص 294 ، ، انظر عيسى شحاتة عيسى ، أبنية اسم الفاعل في القرآن الكريم ، مقال بمجلة علوم اللغة المجلد الثامن العدد الأول 2005 ، ص75.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

41 . انظر ابن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ج 1، ص26 ، انظر السمين الحلبي ، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ج 5 ص 12، انظر السمين الحلبي ،الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ج 1ص 258.

42 . تمام حسان ، اللغة العربية معناها و مبناها ، ص 226.

43 . انظر ابن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ج 1ص26، انظر السمين الحلبي ، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، ج 1، ص 258، انظر سناء حميد البياتي ، قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم ، ص 325 ، انظر تمام حسان ، اجتهادات لغوية ،ص 97.

44 . انظر الصادق خليفة راشد ، دور الحرف في أداء معنى الجملة ، ص127.

45 . انظر مثلا : كمال بشر ، علم الأصوات ، ص 544 ، انظر سناء حميد البياتي ، قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم ، ص 324.

46 . المتنبي ،ديوان المتنبي ،ص85.

47 . انظر ابن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ج 1ص87 ،انظر . إبراهيم إبراهيم بركات ،النحو العربي ج 5 ،ص 254.

48 . المرادي الجنى الداني في حروف المعاني ،ص 434.

49 . انظر ابن جني ،سر صناعة الإعراب ،ج 2 ، تحقيق محمد حسن إسماعيل و أحمد رشدي شحاتة عامر دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ، بيروت لبنان 2000 ، ص 206 .

50 . انظر محمد حماسة عبد اللطيف ، النحو والدلالة ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة مصر العربية ، طبعة 2006 ، ص 155.

51 . أبو حيان الأندلسي ،تفسير البحر المحيط ،ج 5 ، ص 327.

52 . انظر ابن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ج 1ص23، انظر البغدادي (عبد القادر بن عمر) خزانة الأدب ،ج 11،ص123.

53 . انظر ابن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ج 1ص23، انظر البغدادي خزانة الأدب ،ج 11،ص123 ، انظر تمام حسان ،اجتهادات لغوية ،ص 97

54 . عمر بن أبي ربيعة ، ديوان عمربن أبي ربيعة ، ص 50.

55 . تمام حسان ، اللغة العربية معناها و مبناها ، ص 227 انظر حسام البهنساوي ،الدراسات الصوتية عند العلماء العرب ص 237.

56 . انظر ابن هشام ،الأنصاري مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ج 1ص24 ، انظر تمام حسان ،اجتهادات لغوية ،ص 97 ، انظر سناء حميد البياتي ، قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم ،ص 325 ، انظر الصادق خليفة راشد ،دور الحرف في أداء معنى الجملة ،ص125.

57 . انظر ابن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ج 1ص24.

58 . انظر عبد البديع النيرباني ،الوقف في العربية على ضوء اللسانيات ، ص 173 ، انظر أيضا مصطفى النحاس ، من قضايا اللغة ، ص 90 ، انظر حسام البهنساوي ، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب ، ص238.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

59 . تمام حسان ، اللغة العربية معناها و مبناها ،ص 228.

60 . انظر ابن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ج 1 ، ص29.

61 . انظر حسام البهنساوي ،الدراسات الصوتية عند العلماء العرب ، ص237.

62 . مالك بن الريب

63 . ابن السكيت ، إصلاح المنطق ، ص 29.

64 . أبو جعفر النحاس شرح القصائد التسع المشهورات ، ص 104 ، انظر السمين الحلبي ،الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، ج1ص 209.

65 . ابن جني ، سر صناعة الإعراب ، ج 1 ص 268.

66 . الصاوي (محمد اسماعيل عبد الله)، شرح ديوان جرير ،ص98.

67 . انظر ابن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ج 1، ص30.